



الهويات المفترسة واجب التذكر والنسيان /دراسة في الرواية العربية

د. نادية غضبان محمد

المجمع العلمي العراقي - بغداد

Nadia.ghadban@yahoo.com

المستخلص

تعدّ دراسات الذاكرة من الدراسات التي تقع في المجال البين تخصصي، وقد برزت الحاجة إليها لمعالجة التمثلّات الحاضرة للجماعات والأمم؛ بسبب الذاكرة الجمعية للجماعات التي تقدم تصوراً حاضراً للماضي، وموضوع الإبادة والعنف الإبادي من الموضوعات الحاضرة في واقعنا المعاصر، لذا يسعى هذا البحث لإيجاد قراءة أدبية ونقدية لواجب الذاكرة عن طريق إثارة قضية العنف الإبادي في الأدب عن طريق مفهوم (الهويات المفترسة) للباحث الأنثروبولوجي (آرجون أبادوراي). والهويات المفترسة هي الهويات «التي يتطلب بناؤها وتنظيمها الاجتماعي فناء فئات اجتماعية أخرى قريبة منها، تمّ تحديدها على أنّها تمثل تهديدا لوجود مجموعة (النحن)».

يمثل الشعور بالتهديد أولى محددات بناء الجماعة، وفي الوقت نفسه أولى بوادر طبيعتها الافتراضية، فتأكيد وجود الآخر (العدو) هو شرط لبناء الهوية عامة، والافتراضية خاصة. ويحدد (أبادوراي) شروطاً لهذه الهويات، فيقول: «تتولد الهويات المفترسة بشكل دوري عن تواجد هويتين أو أكثر، لها تاريخ طويل من الاحتكاك والاندماج، وحداً معيناً من التنميط المتبادل، ويمكن أن يكون العنف العرضي جزءاً من هذا التاريخ، كما يمكن أن لا يكون كذلك، ولكن لا بد من وجود حدّ من التباين بين المجموعتين في تحديد الهوية». وتدّعي الهوية المفترسة أنّها تمثل الأغلبية، فتتحرك لتحقيق النقاء الهوياتي بالتخلص من الهوية الأخرى المعيقة لإتمام نقائها.

إنّ تحديد الطبيعة الافتراضية للهوية المشيدة يتمثل في الظروف التي تبدو الأغلبية والأقليات فيها مهددة بتبادل الأماكن، ويقف البحث على طريقة تذكر محددات الهوية الافتراضية لاحداث عنف تؤثرها الروايات واستعادة هذا العنف عن طريق الذاكرة.

يخلص البحث إلى أن مقولة الأغلبية والأقلية- التي تقوم عليها فكرة الهويات المفترسة- مشيدة وفقاً لتحولات النظام الاجتماعي والسياسي، وليست مسألة محسومة، فهي سائلة وخاضعة لإعادة التخييل والتشييد والبناء.

الكلمات المفتاحية : دراسات الذاكرة ، الإبادة، الهوية ، الرواية العربية

مقدمة

يُعدّ تقصي موضوع الذاكرة في الرواية موضوعاً مهماً لكشف تمثّلات عجز الأنظمة السياسية الحاكمة ومؤكدة فشل أطاريحه التنموية وصيغ الهوية الجامعة للتعايش السلمي، وهي تمثل "الخطوة الأولى في الاعتراف بأنّ وراء فكرة الدولة- الأمة الحديثة - تكمن فكرة جوهرية وخطيرة وهي فكرة "الانتماء العرقي القومي (...)" مهما علا صوت الرأي العام فيها حول فضائل التسامح والتعدد الثقافي والاحتواء^١.

تخلق هذه السياسات في البناء العميق للنظام السياسي ذاكرة مأزومة قائمة على الـ(هو) والـ(نحن). كما يكشف تصدع الأوطان عن ضعف المتخيل الذي أنشئت حوله الأطروحة السياسية للدولة ونعني (الأمة)(٢)،

ترصد الرواية العربيّة مسألة الهوية في نقاشات شخصياتها، وتسمح بإعادة قراءة الهويات الكبرى التي حملت بداخلها بذور تفككها، مما يتيح المجال أمام الهويات المتجذرة في الوعي الجمعي والسابقة على مفهوم الدولة - الأمة للبروز وإزاحة الهويات الحديثة، لكن الأخيرة تتمكن بالمقابل من منع استعادة النقاء المتخيّل للهويات الفرعية بصورتها القديمة؛ بسبب الذاكرة التي تخلفها. فتستفيق الشخصيات الروائية على صدمة الأصوليات المتطرفة، بعد مرحلة الأنظمة العسكرية والشمولية، ولا سيما في الروايات التي تصف الحروب وحملات الإبادة وثورات الربيع العربي، والثورات المضادة التي كشفت المستور في بنية الدولة والمجتمع العربي(٣). ويصور الخطاب الروائي الخلل في وعي الفريقين، كما نجده في رواية «دي صنعاء والعودة» لعبد الفتاح حيدرة، إذ يشير بطل الرواية (أحمد) إلى مآلات الثورة الجديدة فيقول: «حتى ثورة ٢٠١١ تحولت من أمل عظيم إلى قصة حزينة؛ بسبب المآلات التي انتهت إليها؛ رئيس ضعيف، وحكومة عاجزة، وقوى تقليدية جشعة وقوية أسهمت بحماقاتها وحقدتها في انفلات الوضع الأمني، وانحيار الخدمات الأساسية للدولة»(٤). وكما في رواية «قياموت» للروائي نصيف فلك التي يرمز بطلها لتلك الحركات بـ(الثقب الأسود) الذي يبتلع ما حوله: «لاحظت أنّ معظم قادة المسيرات هم من جماعات الثقب الأسود، يمَشون بتبجح مهتاجين منفعلين يسوطون الناس بشعارات القيامة»(٥). وبشكل عام «يجب أن لا يستغرب المرء هياجاً بين الأعراق والديانات، وحروباً أهلية تتبع رحيل طاغية؛ لأنّ الطغاة كانوا يعتمدون سياسة فرق تسد، وإقصاء قطاعات مهمة من السكان»(٦).

من جهة أخرى أسهمت حركات التغيير السياسي التي تشكلت في ظروف الاحتلال والثورة والحرب والانقلابات العسكرية والشعبية، في ترك رواسب عنيفة انعكست على بنية المجتمع؛ إذ إنّها سَوَّغت العنف كوسيلة للنضال، كما حوّل المشروع السياسي جماعات من النسيج الاجتماعي إلى أعداء، فيظهر الكردي، مثلاً، قاصداً تخريب المؤسسة العسكرية؛ ليضمن تحقيق انفصاله السياسي، كما تمثله شخصية عباس الكردي في رواية «حصار العنكبوت» لكریم كطافة؛ التي تروي جانباً من الإبادة الجماعية للکرد، إذ يقول في حوار مع أحد الشخصيات:- «هو هذا سبب وجودي في الجبهة، أساعد

١ الخشية من الأعداد الصغيرة: دراسة في جغرافية الغضب، أرجون ابادوراي، ترجمة: مفيدة مناكري لبيض، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١٠: ١٦.

٢ () ينظر: عوامل السقوط الحضاري تكمن في بذور النهضة نفسها، د.حسن مجّاد، صحيفة القدس العربي : <http://www.alquds.co.uk/?p=١٥١٤٤٥> تاريخ الدخول : ٢٠١٨/٨/١.

٣ () ينظر : سوسيولوجيا الهوية جذليات التفكك والوعي والبناء، د. عبد الغني عماد، مركز الوحدة، بيروت، ٢٠١٧: ٢٧٩.

٤ () دي صنعاء والعودة : ٣٣، ينظر : مذبذبون لون دمهم في كفي الحبيب السائح، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠١٤: ٢٥٢.

٥ () قياموت : ٢٧٢.

٦ () ينظر : الشرق الأوسط الجديد : الاحتجاج والثورة والفوضى في الوطن العربي، آفي شلايم، تحرير : فواز جرجس، نقله إلى العربية، عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نيسان، ٢٠١٦ : ٢١.

الجنود على الهرب والالتحاق بالجبل، أني يريد يفلش الجيش!!» (٧). يظهر من الحوار أنَّ المعارض الشيوعي (وافي) يستهدف رأس السلطة: «يعني أنت تعرف شتريد؟/ بلي، آني يريد أفكك عدو شعبي من الداخل، اقصد الجيش!! يرد عليه وافي بذات الضحكة التي ما زالت حائرة بين السخرية والاندھاش: - مع أنَّ هذا تفكير مجاني، والجيش ليس عدو شعبك، بل الحكومة التي تستعمل الجيش، لكن، بعد تفكيك الجيش وين تريد توصل؟/ - أنا لا أريد لشعبي أن يظل تحت رحمة العرب!!/ - واني شايف أن العرب والأكراد هم تحت رحمة أو نقمة حزب البعث الآن./ - هذا أنت تشوفه لأنك سياسي وشيوعي، تشعر باضطهاد الحكومة إلک، لكن الواقع يقول إنَّ العرب لا يسمحون للأكراد بالانفصال عنهم» (٨). يحدد الحزب القومي صفة العدو بشكل واضح في (العرب). في المقابل فإنَّ الانشطار الطولي يقع داخل الجماعة نفسها، فکرد العراق مثلاً يتهمون فئة (الجحوش أو الفرسان) (٩)، بأنَّهم خونة لجماعتهم كما نلمس في الرواية (١٠)، فإذا ما كان العنف مؤشراً سياسياً وله علاقة بأطراف إقليمية وعالمية؛ فمحركات العنف تنطلق من اتساع الثقوب في جدار المجتمع الواحد.

يتحول التنازع الاجتماعي ومن بعده السياسي إلى موضوع قاتل في مرحلة الحرب والحرب الأهلية؛ التي يُعدَّ القتل على الهوية من ملامحها المميزة، فالهوية مفردة مركزية لتبرير دوافع القتل المعلنة، يختفي في ظلها الفرد، وتظهر الجماعة كما في رواية «شريد المنازل» للروائي اللبناني جبور الدويهي، إذ يصف لنا (نظام) مشهد قتل شاب مجهول الهوية على قارعة الطريق، والاحتمالات التي يبرر بها المارون مقتله: «سرت وشوشات بأنَّ القتيل فلسطيني، ضابط في منظمة الصاعقة كان يتجسس هنا في المنطقة، ادَّعى أحدهم أنه يعرفه، إنَّه سوري أو ربما كردي يعمل في سوق الخضار» (١١). وفي رواية «مدن اليمام» لابتسام تريسي وبينما يدون الصحفي حنظلة حكايات النازحين من سوريا -على إثر العنف الداخلي- يدور حوار بينه وبين الأطفال الساكنين في مخيم الزعتري في الأردن. يتضح من خلاله أثر العنف في بروز الهوية الفرعية، فبعد أن يرى حنظلة حالة البؤس التي يعيشها السكان يشتم النظام الحاكم لتسببه بكل هذه الأحداث، فيجيبه أحد النازحين بشتيم الطائفة التي ينتمي إليها الحاكم: «يلتقط محدثي تلك الكلمة، وكأنها جبل سحري سيخرجه من عتمة البئر: (علوي)، أجدي أنفي بسرعة لا، لا أريد أن أكون طائفياً. يصيح (بل علوي). يبدو أننا نساق كالنجاج نحو الطائفية كما ساقونا نحو التسليح، وكما ساقونا خلال خمسين عاماً نحو الذل والعبودية. قد يكون محقاً.. هل أصبح طائفياً إن قلت ذلك؟» (١٢).

٧ () حصار العنكبوت، كريم كطافة، دار نون للنشر والتوزيع، راس الخيمة، ٢٠١٤ : ٤٥.

٨ () حصار العنكبوت : ٤٥-٤٦.

٩ () ينظر : القسوة والصمت، كنعان مكية، منشورات الجمل، دار الساق، المانيا، ٢٠٠٥ : ١٥٣.

١٠ () ينظر : حصار العنكبوت : ٢٠٩، وفي رواية «آخر الملائكة» لفاضل العزاوي يرصد الراوي جانباً من التنازع الاجتماعي والسياسي في بنية المجتمع العراقي عن طريق مدينة «كركوك» التي يقطنها الأكراد والعرب والتركمان، تصور الرواية نظرة كل عرق وطائفة إلى الأخرى، فقد كان العرب يُصورون على أنَّهم : «خونة إلى أبد الأبدین، فقد ساعدوا الكفار الإنكليز، في حربهم ضد العثمانيين المسلمين، وقاتلوا إخوانهم الأتراك بدون أي اعتبار للدين الذي يوحدهم»/الرواية ١٨. يحدد التركمان عدوهم في الرواية في الحكومة، والطيف الذي يقف معها وهم العرب، فيرسخون فكرة الحكومة العميلة والكافرة، فيما يحتفظون للكردي بصورة (الأحمق) وهي صورة متدنية: «فهل كان يمكن لله أن يستجيب لدعاء مثل هؤلاء الحمقى» /الرواية ١٩. ينعكس التنازع الاجتماعي على نشوء الحركات السياسية أيضاً ويسهم بخلق بذور التفكك في مفهوم النهضة السياسية: «فإذا ما هاجم أعضاء الحياة الآخرة الشيوعيين هتفوا قبل كل شيء عاش العقيد، المسلم الأوحّد، قاهر الشيوعية والشعوبية». وكان الشيوعيون يردون عليهم بشعار عاش العقيد الأوحّد، قاهر الرجعية(....) ولم يقتصر الأمر على الحرب بالشعارات المخفية وراء اسم العقيد، فقد أخذ الناس يقتلون بعضهم الآخر بالرصاص والخناجر والبلطات»/الرواية ٢٨٤-٢٨٥. آخر الملائكة، فاضل العزاوي، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٦.

١١ () شريد المنازل، جِبّور الدويهي، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠ : ٢١١.

١٢ () مدن اليمام ابتسام تريسي، مكتبة الدار العربيّة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤ : ٣٢٩.

الهویات المفترسة

تغلب الانتماآت الطائفية والعرقية بوصفها محددات للهوية في وقت تضعف فيه انتماآت أخرى؛ مما يدفعنا للتعرف أكثر على طبيعة العلاقة بين الهويات في ظل الحروب وحملات الإبادة؛ لذا سنسلط الضوء على مشكلة الهوية المتضمنة في النصوص الروائية عن طريق توضيف مفهوم (الهويات المفترسة) [١٣] أثر الاحتلال والمقاومة في تشكيل الهويات المفترسة

يجب الالتفات، في النقاش حول الهوية، إلى موضوع الاحتلال، ففي رواية «الظل والصدى» يعدّ الاحتلال الإسرائيلي- مثلاً- محركاً فاعلاً لانشطار الهوية الوطنية، ومن ورائها الهويات الكبرى، وتحريكها لمستقبل هذه الهويات، لأنّ الخلاف يرتبط بموقف حكومي من الاعتداء على الفلسطينيين.

يشعر سليم في رواية «القنافذ في يوم ساخن» لفلاح رحيم، باليأس من إمكانية إقامة حوار عراقي- عربي بسبب السردية الإعلامية المرتبطة بقضية فلسطين والاحتلال؛ التي غيّبت جانباً كبيراً من القضايا الجادة: «أدركت بعد سنوات أن هناك سوء تفاهم مستحكماً لا سبيل إلى حله بين العراقي المنهك الخارج من سعير الوطن إلى سعير الصحراء العربية وبين العربي الذي تعرض لعقود من الإعلام الذي لا يجد ما يتحدث عنه سوى التستر بقميص القضية الفلسطينية» [١٣]. وبالطريقة نفسها نواجه مشكلة الهوية العربية في الرواية عن طريق تأزم آفاق الحوار بين شخصيات الرواية التي تدور حول حياة (سليم) وهو أستاذ عراقي يدرس في إحدى الجامعات العُمانية، ومعه عدد من الأساتذة العرب من العراق وتونس وسلطنة عُمان وغيرها، نلاحظ كيف تتأزم مسألة الهوية الوطنية والعربية في وعي سليم وهو يشخص الوضع السياسي والاجتماعي في العراق للآخرين من العراقيين والعرب: «يومئذ جلس إلى جوارى إبراهيم الساسي، وهو أستاذ تونسي من قسمنا لم يكن قد بلغ الثلاثين (...) لفت نظري في الثلاثة شهيتهم المفتوحة لالتهام الطعام وصخبهم وتنكيتهم والطريقة المتعجرفة التي كانوا يصرون بها الأوامر للنادل الهندي، إذ طلب منه الأستاذ الذي لم أره من قبل أن يناوله المملحة ولم تكن تبعد عنه أكثر من ذراع، كان لإبراهيم الساسي كرش لا تتناسب مع صغر سنه واتسمت حركاته باندفاع أهوج لا يخلو من عدوانية يوحي بأنّه لا يقيم وزناً لأحد حوله» [١٤].

يمكن أن تشير شخصية العربي في الرواية إلى أزمة خطاب الهوية العربية ممثلاً بصورة الأنا المتضخمة، التي تعزل نفسها داخل محيطها، وتكن الكره للغرباء وتتعالى عليهم. فحشعهم للطعام يمثل نفعيتهم في التعامل مع القضايا، إلى جانب التعالي على الآخر المختلف، كتعاملهم مع الهندي، وتحويل صفته من نادل إلى خادم وهو ما يتغير عندما يتعامل مع العماني العربي: «بالرغم ممّا تأكد لي لاحقاً، من أنّ طباعه كانت تنقلب رأساً على عقب عندما يتعامل مع أبناء البلد من العمانيين وأنّ شعبيته بينهم كانت واسعة جداً» [١٥]. تميز هذه الصورة للهوية العربية ذات الطبيعة الثنائية بين الأعلى والأدنى، وبين ابن البلد والغريب، مما يجعل البحث يرصد خللاً في بناء نموذج الهوية العربية وهو خلل جوهري يمنعها من تحقيق إمكانات الاقتدار على خلق هوية حديثة.

بعد بيان هذه المحددات لعجز الهوية، يصبح واضحاً المسافة التي تمنع الأستاذ التونسي من فهم ما يحدث في العراق: «حين عرف أي من العراق انطلق يعبر عن مشاعره القلبية تجاه الطاغية القابع في قفص المحاكمة. كان يمجده وهو يحشو فمه بالطعام، ثم حول نظره نحوي على نحو لم أتوقعه وسأل- ما مشاعرك وأنت ترى هذا البطل خلف

١٣ () القنافذ في يوم ساخن، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بنغازي، ٢٠١٢ : ٢٢-٢٣.

١٤ () القنافذ في يوم ساخن : ٤٠-٤١.

١٥ () م.ن : ٤١.

القضبان (...)/ - أين البطولة في أن تتسلم الحكم في بلد مستقل وتتركه وقد أصبح محتلاً؟ (...)- حدث الاحتلال لأنّ في البلد بطلاً، سألت وأنا أحقق إلى عينيه الضيقتين:- البطل أم النفط“(١٦). إنّ ضيق عين الأستاذ التونسي، وشهيته لالتهام الطعام هي الصورة التي يقدمها سليم ليعزز تعذر امكانية بناء حوار بينه وبين الأستاذ التونسي، فالجدال الذي يبدو صورة للجدال العربي - العربي حول الهوية سرعان ما يبرز تحت عنوان طائفي: ”سألني الأستاذ الذي ابتدأ الجدل:/ هل رأيك هذا يمثل الأغلبية في العراق؟ فرد عليه زميله الذي ظل يلزم الصمت:- الأغلبية في العراق من الشيعة، وهم جميعاً حاقدون على الرئيس“(١٧).

يعود موضوع الأغلبية محدداً لطبيعة الهوية، وعندما يصف الأستاذ العراقيين بأغلبية شيعية، يعني أنّه يقف متضامناً في موقع الأقلية ويشعر بافتراس الهوية للآخرى لهم بدافع الحقد. وكان معطلاً بينهم: ”أيقنت أنّي لم أكن لا توصل إلى موقف يختلف عنهم لو كنت أرصد المشهد العراقي من ربوع تونس الخضراء الوديدة الآمنة. سرعان ما تبخر لومي لهم لكنني تجنبتهم، وكان ذلك يعني إني صرت أتناول طعامي وحيداً في معظم الأحيان“(١٨). إنّ موقع الرؤية (العالي/ البعيد/ غير الموضوعي) الذي يتخذه العربي يمنعه من التعرف إلى إشكاليات الاحتلال والوضع العراقي، لاحتكامه إلى صورة مسبقة أخرى متضخمة حول طبيعة الأغلبية في العراق بعد الاحتلال.

يؤدي انقطاع الحوار بين سليم وزملائه العرب إلى حيرته بشأن موقفه من ما يحدث في بلده: ”كل تواصل مع العراقيين أو العرب حولي ينتهي إلى قململ داخل شبكة المفارقات المحيرة لا يفعل إلّا زيادة الإحساس بها(…) الاحتلال الأمريكي مفارقة محيرة ومواقف العرب والعراقيين منه مفارقة محيرة هي الأخرى، الناقمون على الاحتلال يدفعهم، أما حنين إلى نظام استبدادي جائر، وأما حلم زائف في إقامة الدولة الإسلامية التي ستحق الحق. الراضون بالاحتلال حولوه إلى وسيلة ثأر وتهديم وإثراء ونهب وانتهى بهم المطاف اليوم إلى الحرب الطائفية كل هذه الخيارات بعيدة عني“(١٩). تشير هذه المعاناة النفسية إلى وجود مشكلة معرفية بين فكري الاحتلال والحرية في الإدراك والمفهوم، فمع القيم والمبادئ التي تعرفت إليها الشخصية العربية والقاضية برفض الاحتلال، تنشأ فجوة بين المعرفة والتطبيق، تفضي إلى عجز الشخصية عن الوصول إلى موقف واضح. كما يشير الموقف الجديد (الانعزال) إلى التصدعات في الهوية العربية الجامعة، و ”تبدو (العزلة)- أي عزلة الفرد - واقعا وحقيقة بعدما تحطم المعيار أو العرف المشترك“(٢٠) وهو ما يشخصه سليم في الرواية: ”لقد قررت منذ سقوط بغداد عام ٢٠٠٣ أن لا سبيل إلى التفاهم بين العراقي وأخيه العربي بشأن ما يحدث، وأنّ المودة بينهما يجب ألا تعدو حدود المشاعر العصبية البحتة التي لا سند لها في المنطق والتوافق العقلي“(٢١).

وكما إنّ الاحتلال هو الثقل المركزي في توجيه نقاشات الهوية العربية، فإنه والمقاومة يعدّان وجهين فاعلين لإذكاء أزمة الهوية الوطنية، إذ تتبنى الشخصيات العراقية في نقاشاتها- أساليب الحذف والاستبدال والاختزال؛ لتبرير الحرب الأهلية، فيتبنى الأستاذ العراقي (حاكم) خطاباً طائفيّاً، وذاكرة تاريخية محددة؛ لإخفاء إيديولوجيته السياسية السابقة فيقول مخاطباً (سليم): ”إنّ تفجير المرقدين فجر الدملة المتقيحة وها أنّهم أولئك الشباب يتولون حسم الموقف بعد أن نفذ صبرهم/- سألت

١٦ () القناذ في يوم ساخن: ٤٢.

١٧ () م.ن: ٤١-٤٢.

١٨ () م.ن: ٤٢-٤٣.

١٩ () م.ن: ٤٠.

٢٠ () عمر الرواية، مقال في النوع الأدبي، الدكتور محسن جاسم الموسوي، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، ١٩٨٥: ٣١.

٢١ () القناذ في يوم ساخن: ٢٣، ينظر أيضاً في السياق عينه: قشور الباذنجان: ٢٠٠.



بحیاد وبفضول حقیقی : هل تقصد ميليشيات المهدي؟ (٢٢). لا يعتقد حاكم بأن الدولة هي مَنْ سيعيد تهدئة الأوضاع، ولا جهازها العسكري والأمني، بل الجماعات المدنية المسلحة، ويحيل الصراع إلى منطقة المقدس، فيعترض على توصيف الميليشيا قائلًا بـ "كلمة ميليشيات مشبوهة"، إنهم ليسوا ميليشيات، والعراق ليس لبنان، إنهم جيش الحق (٢٣). يصور حاكم الجماعة المقاتلة في صورة جيش عقائدي ديني، مما يعني الدعوة لقبول أفعالها من دون نقاش، ومن أهمها الحق في إبادة الآخر. ينتمي النقاش منذ الآن إلى منطقة مأزومة للهوية تتعلق بفقهيات الفئة الناجية. وهو ما سيدفع بالجدال إلى منطقة تحجب الفاعل الرئيس وتحوله إلى فاعل تاريخي، وتحول الحرب إلى حرب ذاكرة، فيتعطل الحوار، لأن توصيف الفئة بـ (الحق) سيعني أن المعارض لها لن يمثل سوى الباطل، فتستثمر إيديولوجيا العنف القاتل مع ممارسات دينية، وتدفع إلى تقديس الفعل؛ لذا لا يعلق سليم على الأمر؛ لأن توصيف (الحق) ينهي مجال النقاش بشأن مدى صحة التوصيف والأدلة عليه. ومن جهة أخرى فإن ظهور مثل هذه التوصيفات المطلقة تنحو بالهوية منحى افتراضياً؛ لأنها تصور نفسها مهددة من قبل هوية أخرى، فتبرر سعيها إلى النقاء الهوياتي بالتخلص السريع من الآخر.

ينتقل سليم إلى زاوية أخرى للنقاش بهدف إيجاد مناطق اتفاق، تتمثل بتوصيف هذه الحرب بين الطرفين فيصفها بأنّها حرب أهلية ستضرّ بالبلا، وسرعان ما يجد من يبررها من الحضور: "لكنها حرب أهلية، وهو ما يعني أن كل المشاركين فيها خاسرون. قال أياد وهو يتفحصني لأول مرة: -/ لقد قُتلوا آلاف الأبرياء بحجة المقاومة. أجبت بسؤال: مَنْ هم؟ أنت تتكلم عن فلول البعث وعصابات القاعدة. قال حاكم وهو من دون أدنى شك واحد من فلول البعث بحسب ما اعرف عنه: -/ أخي سليم، دعنا نواجه الحقائق المسألة أعمق من البعث وفلوله؛ إنها صراع تاريخي يمتد مئات السنين" (٢٤).

ينضم صوت جديد إلى النقاش، وهو صوت مؤيد لحاكم، يعزز بناء الهوية الجديدة (الطائفية) فيحدثه عن الطبيب العراقي، الذي يرسل السيارات المفخخة إلى العراق: "هل تعلم أن هنالك جمع تبرعات في عمان بين الأطباء العراقيين لدعم المقاومة الشريفة في العراق، وما المقاومة إلا قتل العراقيين العزل" (٢٥). توظف هذه التصنيفات لإبراز الطريقة التي تخفي بها الجماعات تاريخها وتبني ذاكرتها، فالبعثي الشيعي يفكك مفهوم المقاومة لدى الجماعة الأخرى؛ بالسخرية منها من خلال توصيفها بـ "الشريفة"، وإفراغها من محتواها، وتحويلها إلى جرائم قتل، فيما يُهمَل موضوع الاحتلال؛ لأنه قد يتورط بتبعاته إذا ما أصرّ عليه وهو يتبنى الهوية الطائفية؛ لذا فإن مَنْ سيتخلص منهم هو (جيش الحق) من دون أن يلحق به وصف المقاومة.

وعندما يدرك سليم ضبابية مفهوم العدو، يحاول تسميته بشكل واضح ويحصره في (فلول البعث، وعصابات القاعدة) في محاولة لتمييزهم من الآخرين، الذين تشير إليهم أصابع الأصدقاء ذوي التفكير الطائفي. تلاقي هذه المحاولة لإعادة توصيف العدو من غير المحدد إلى المحدد اعتراضاً واضحاً، لدى حاكم فينقل توصيف العدو إلى عمق الذاكرة التاريخية ويؤكد الصراع المذهبي كأعلى سقف للخلاف في الحاضر؛ ويجري استبدالاً بين الذاكرة القريبة والبعيدة، فينتقي منها الخلاف المذهبي: - "إن العجز عن التعرف إلى العدو الحقيقي وليس الوهمي، الكامن وليس الظاهر، هو الذي يؤدي بتعبيرات الهوية نحو الانحراف وتبلور وعي هوياتي مزيف ومؤدلج ومصاب بالعطب البنيوي وبالعمى

٢٢ () م . ن : ٥٤-٥٥.

٢٣ () م . ن : ٥٥.

٢٤ () م . ن : ٥٥، ينظر : م . ن : ١٥٨.

٢٥ () القناذ في يوم ساخن : ١٥٩.

السوسيولوجي“ (٢٦). وهذا التاريخ الذي يحدده حاكم هو التاريخ الذي يختاره ليبدأ معه مفهوم الهوية. ينتقل سليم بعد تعطل الحوار الخارجي إلى المونولوج؛ لتعذر إيجاد مشتركات لإكمال الحوار: ”خطر لي أن منطق حاكم هذا يبيح تبرئته من ماضيه البعثي؛ لأنه يجعل الولاء السياسي مسألة تتقرر بالانتماء الطائفي، لكنني لم أعلق بشيء“ (٢٧). يتبين من وعي سليم وطريقة بنائه للخطاب المضاد الذي يكشف كيف يُعاد بناء الذاكرة والتأسيس للهوية اعتماداً على لغة برغماتية، إنَّ الهدف هو اخفاء البعثي الشيعي (الشيعي المؤدلج قومياً) تحت غطاء هوية أخرى (طائفية) كانت مغيبة في عصر ازدهار الإيديولوجيا القومية، إذ يقفز على ذاكرة تاريخية آفلة تتمثل في توصيف سليم (فلول البعث)؛ ليحل محلها ذاكرة تاريخية بعيدة (فاعلة)، يتمثل مظهرها في الحاضر بالجماعات ذات التوصيفات الطائفية والدينية، حتى يتمكن من الذوبان في الواقع الجديد من دون تبعات، وبالمقابل يفعل (البعثي السني) في التماهي مع الحركات الإسلامية الأصولية واستعادة ثقل موضوع الاحتلال؛ للتغطية على تبعات الانتماء السياسي، وهو ما يشبه إلى حد ما الحيلة الكولونيالية المرتبطة بغسل (لون الأسود) عن طريق الدين، وقد مارستها الكولونيالية الأوروبية مع ذوي العرق الأسود، إذ إنَّ تحويلهم إلى مسيحيين في حملة التبشير للمسيحية كان كفيلاً بأنَّ يسمح عنهم عار اللون (٢٨). وإزاء ذلك يكون صوت سليم الصوت المعارض الفاضح للمسكوت عنه، في تحديده فكر حزب البعث وقادته كمرجعية تتحمل أخطاء انهيار البلد.

من جانب آخر يُبرز النص ضعف الصوت المضاد، فهو لا ينجز إلّا في الحوار الداخلي أي في وعي الشخصية من غير أن يكون له قوة حضور إزاء الصوت الآخر المجادل: ”وقد تواصل كلام الثلاثة متكاتفاً لتأكيد فكرة حاكم التي صدمتني“ (٢٩). وتؤكد نهاية المقطع إنَّ قيم الحداثة السياسية ليس لها جذور قوية، إذ سرعان ما استعادت خطابات مستمدة أصولها من مصادر قديمة للهوية، وكشفت فاعليتها وقوتها في ظل ضعف الهوية الوطنية: ”كان جلياً أنّي حللت في تلك الأمسية ضعفاً على قبيلة بدائية مشغولة بشارت القرون الوسطى“ (٣٠).

من جهة أخرى يسعى (البعثي السني) للاحتفاء بفكرة الاحتلال؛ ليعيد تقديم نفسه كما يظهر في رواية ”مثلث الموت“ لعلي لفته سعيد، إذ تقوم جماعة مسلحة بخطط الصحفي (الشيعي سلام) في منطقة اللطيفية، وخلال ذلك ينجح سلام بإقناع زعيمهم بإجراء حوار معه، على أن يُطلق سراحه مقابل نشره. ويظهر من الحوار إنَّ مفهوم الاحتلال هو ما يتحكم بوعي الجماعة ظاهرياً. تقود سرديّة الاحتلال المعززة بالواقع إلى استبدال الجهة المحتلة (الولايات المتحدة الأمريكية) بمصادر أقدم للاحتلال في الذاكرة التاريخية، فيجري تجاهل (الاحتلال البريطاني) رغم تشابه مناخاته، ويهمل (الاحتلال العثماني)؛ لينتقي (الاحتلال الصفوي)، وبذا يكون الاحتلال سرديّة رخوة تتيح فعل انتقاء احتلال، وترك آخر لشحن الذاكرة إيديولوجياً، وتبرير الحرب الطائفية، بوصف إيران رمزاً (للشيعة الذين يمثلون الحكومة في العراق بعد الاحتلال): ”كانت الإجابات التي سجلها سلام تشي بثقة كاملة من أنّهم ساعون في ما يؤمنون به، بل ويصرون على أنَّ العراق أصبح فارسياً، وحين سأله سلام إذا ما كان هذا الرأي فيه تجني على جزء كبير من العراقيين قال: إنَّ الحكومة هي السبب هي التي وضعت يدها بيد إيران“ (٣١). إنَّ انتقاء الاحتلال الفارسي الذي تختاره الشخصيات المقصية من السلطة أو من يمثلها، يسهم في إعادة صنع هويتها بطريقة يمكن تبريرها، بسبب ثقل الذاكرة التاريخية؛

٢٦ () سوسيولوجيا الهوية.. جدلية البناء والتفكك : ١٧.

٢٧ () القنافذ في يوم ساخن : ٥٥.

٢٨ () ينظر : الكولونيالية وما بعدها ، أنيا لومبا، ترجمة: د. باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والنشر، دمشق، ٢٠١٣: ٥٦.

٢٩ () القنافذ في يوم ساخن : ٥٥.

٣٠ () م . ن : ٥٤-٥٥.

٣١ () مثلث الموت : ٣٠٧.

إذ لم تحفل الذاكرة باستدعاء الاحتلال الأوروبي مع قرب المسافة الزمنية، وتشابه المناخ العام الذي رافق بدايات تأسيس الدولة العراقية، وأغلب الظن أنهم تجاوزوا ذاكرة الاحتلال البريطاني؛ لأن الأخيرة عندما شكلت الحكومة الانتقالية في دولة العراق الحديث، ترأسها عبد الرحمن النقيب، وكان الرجل سني المذهب، وأتهم بالعمالة أيضاً (٣٢). يُعَيَّب الخطاب السردي للجماعة هذه الذاكرة، ويفضل القفز إلى عمق الذاكرة التاريخية؛ ليكسب الصراع بعداً مذهبياً وعرقياً، كما يتضح أن العراقيين يُقسّمون على قسمين من وجهة نظر سلام الشيعي فهم عراقيون راضون بمنطق الحكومة التي يصورها الآخر/ السني، وآخرون رافضون لها وهم عراقيون أيضاً، في حين أن خطاب الآخر يوسع حقل الاستعارة؛ ويحول العراقيين جميعاً وبالأخص الشيعة منهم إلى فرس، فيصبح الجميع أعداء يباح قتلهم وكل هذا يجري من خلال الإيهام بثبات الهوية، عن طريق التكرار مما يحول مثل هذه الهويات إلى هوية قاتلة (٣٣). يدرك عماد في رواية "قتلة" لضياء الخالدي حقيقة حركة التأريخ والممارسة غير البريئة لفعل الانتقاء، إذ يقول: "التاريخ ليس ملائكياً، وهناك من يستثمر حادثة منه لكي ينفذ رغباته. تلك الرغبات التي تصنع الطغاة" (٣٤).

تشير مسألة الهوية في رواية الحرب الأهلية موضوعات فساد النظام السياسي، والثورة والاحتلال والمقاومة، وانتهيار الأيديولوجيات المؤسسة لنظام الدولة، ويتبعها نقد واضح لحركات الإسلام السياسي، ويرصد تشظي الهوية الوطنية لصالح الهويات الفرعية الأخرى، فيتحوّل المواطن في الدولة إلى فرد في جماعة.

الذاكرة المستعادة:-

يصبح حدث الحرب إطاراً مرجعياً لفهم الحياة والذات والآخر، لاسيما عندما ينتهي هذا الحدث وينتقل إلى الذاكرة، بل وتبدأ الشخصيات بنسيانها في محاولة لتجاوزها من دون جدوى، عند ذلك يتم استعادة ذكرى الحدث بوصفه أسلوباً للمعالجة، فأبطال الروايات يعودون إلى المكان الذي تركوه بسبب الحرب، ليعالجوا المنطقة المضطربة في حياتهم، كما تفعل هيلدا في رواية "طابق ٩٩" للروائية اللبنانية جنى فواز الحسن، فتقرر العودة إلى لبنان حتى تواجه ماضي عائلتها المسيحية الذي رسمته الحرب، وهي تؤكد حاجتها للعودة بعد أن ترتبط بعاطفة حب مع "مجد" الشاب الفلسطيني، يلتقيان في الولايات المتحدة الأمريكية بعد مرور زمنٍ على انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، لكن ذاكرة الحرب تظل حية، وتتلور على شكل أسئلة يطرحها كل من هيلدا على والدها وعمها، ومجد على والده بشأن العلاقة المترتبة بين الفلسطيني واللبناني وذاكرة الاحتلال والحرب: "مضت بضع دقائق من السكوت التام قبل أن تبادر هيلدا إلى تبرير رحيلها وتحكي عن صراعها المستمر بين (الهنا) و(الهناك). قالت لي: إنها في حاجة ماسة إلى العودة، إنها يجب أن تواجه ذلك المكان؛ لتتمكن من أن تفهم أين تقف الآن، قالت: إنها تشعر بالغبرة وإن وطأة الزمن الذي أمضته بعيدة عن ذاكرتها تبدو شديدة ومؤلمة، وراحت تؤكد أنها ستعود وإن ذهبها ليس محاولة للتوصل من هنا" (٣٥).

في سياق استعادة أحداث الحرب في الذاكرة، والعودة إلى الوطن، تسعى الشخصيات للبحث عن إجابات لأسئلة ملحة، لم يكن بالإمكان الخوض فيها حينذاك: "عندما تقرر أن تدوس الأرض، التي ولدت فيها، بعد غياب طويل يتطلب الأمر شجاعة قصوى، أنت لا تعود إلى ذاكرتك فحسب، بل تنبشها بحثاً عن الصواب والخطأ فيها" (٣٦). نعرش لدى

٣٢ () ينظر : الرؤية القلقة في أطروحة الشيعة والدولة القومية لحسين العلوي، مؤيد عبد القادر، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٧ : ٣٤.

٣٣ () يرى أمين معلوف أن الهوية لا تعطى إلى الأبد، فهي تتشكل وتتحول على طول الوجود، ينظر : الهويات القاتلة : ٢٥

٣٤ () قتل : ٦١.

٣٥ طابق ٩٩ : ١٧.

٣٦ () م.ن : ٢١٥.

هیلدا على مثل هذه النزعة النقدية، بعد أن يهدأ ضجيج الحرب، لكنها تصطدم بالقتلة القدامى وقد شكّلت الحرب أفقهم بطريقة لا يمكن أن يتراجعوا عنها، ففي الوقت الذي تنتظر فيه أن يعيد أفراد عائلتها؛ المشاركون في الحرب تقدير مواقفهم السابقة، والاعتذار عنها، ترى أن الأمر لن ينجح، وهو ما يخبرها به عمها، وهي تنزل إليه في قبو البيت؛ القبو الذي يمثل ذاكرة القتل والتعذيب في الماضي، فيه كان يقتل والدها وعمها الطائفة الأخرى، يحول العمّ القبو بعد نهاية الحرب إلى مكان لصنع منحوتات ولوحات فنية، تنزل هيلدا إلى القبو وتشاهد عمها وقد صنع تماثيل تعبر عن كائنات معذبة ومشوهة ومقطّعة الأعضاء ويدور بينهما جدال حول مواقف كل منهما من الماضي : "أنت تتعبدن نفسك فحسب، لا تستطيعين أن تقنعي أحداً مضى بخياراته عمراً أن يعود عنها يا ابنة أخي/- منحوتاتك يا عمي تشي بالذنب./أطلق ضحكة دوت في كل أرجاء القبو-/ بالذنب؟ منحوتاتي تشي بالحياة، بالقوة. كنا رجالاً أقوياء، لا يحني سواعدنا شيء" (٣٧). تدرك هيلدا صعوبة الخطاب الذي تصطدم به مع ماضيها، وما تحاول التأسيس عليه للخروج من ذاكرة الحرب (٣٨): "أنا الممزقة من البيت الأول (...) الذاكرة كأنّها تتحداني أيّ لن أستطيع أن أصنع مكانها ذاكرة جديدة (...) ربما عدت لأحتال على الذاكرة، لأخبرها أنّه يمكننا أن نتوصل إلى تسوية ما. أن اتسع لكل الأماكن، وأنه عداوة مع الجذور" (٣٩). يتمثل الحل لدى هيلدا بتوسيع الذاكرة ومخاطبتها، وهو ما يعني أن لا تعتمد على الذاكرة الأولى التي حفلت بالعنف؛ لذا تترك بيت عائلتها، وتترك بيروت؛ لأنّه لا مكان فيها إلّا للذاكرة الضيقة التي توجع العداوة، وتعود إلى الولايات المتحدة؛ في المكان الذي تلتقي به بمجد- عدوها السابق على وفق منظور عائلتها- وحببها على وفق رؤيتها للحاضر، لتنتهي عداوتها مع الجذور. لكن خيار المصالحة ليس أمراً سهلاً لدى الفلسطيني مجد الذي يتعامل مع الذاكرة بطريقتين في آن واحد، فينسى جانباً من تاريخه المتعلق بالحرب الأهلية، ويشجعه حبه لهيلدا على ذلك، أما قدرته على صنع ذاكرة جديدة فيعلقها، بسبب تاريخ بلده الطويل مع ذاكرة الاحتلال : "وعلى أمل أن نضع ماضياً آخر وحتى ذلك الحين، تبقى ذاكرتنا، نحن الفلسطينين، معلقة كمن لا يريد أن يفقد أمل العودة" (٤٠). وفي رواية "التائهون" للروائي اللبناني أمين معلوف يعود آدم إلى لبنان في زيارة سريعة للمشاركة في مراسم عزاء صديقه بدعوى من أرملته، وهي المرة الأولى التي يعود فيها إلى وطنه بعد انتهاء الحرب، بعد أن يهجّرها في أثناء الحرب الأهلية، فيسعى خلال زيارته إلى دعوة أصدقائه للتجمع في منزل الفقيد، واستعادة ذكرى أيام المراهقة والشباب، لكنه ما إن يصل حتى يدون حيرته وقلقه في مفكرته التي ستظل ترافقنا طيلة أحداث الرواية، ومنها نعرف أن العودة وخيار معالجة آثار الحرب ليست بالأمر الهين : "قبل يومين من وقوع المأساة، سيّدون آدم في مفكرته: أحمل في اسمي ولادة البشرية، غير إني انتمي إلى بشرية تندثر" (٤١). فبعد أن ينجح بجمع الأصدقاء، وعند ذهابه للقائهم يتعرض لحادث يدخله في غيبوبة: "الأطباء لا يجزمون بالأمر؟ يقولون إنه سيبقى طويلاً بين الحياة والموت، قبل أن ينكفى إلى هذا الجانب أو ذاك (...) وأضاف : "مثل بلده، ومثل ذلك الكوكب. مع وقف التنفيذ، مثلنا جميعاً" (٤٢). تمثل حالة الغيبوبة قيمة رمزية تؤشر حالة القلق والارتباب بسبب الذاكرة. إذ يتعزز لدى العائدين لتفقد الوطن بعد الحرب شعور بالعجز عن تغيير شيء ما إلى الأفضل؛ كما يدون آدم في مفكرته : "لدى عودتي إلى

٣٧ () طابق ٩٩ : ٢٥٠٠

٣٨ () ينظر : الأمل والذاكرة : ٢٢٩. إذ يتطرق المؤلف فيه إلى استخدامات الذاكرة، وطرق التعامل معها للخروج من الأزمة.

٣٩ () طابق ٩٩ : ٢٤٠.

٤٠ () م.ن : ٢١١.

٤١ () التائهون : ١١.

٤٢ () م.ن : ٥٥٥.



أرضي الغريقة، ظننت أني سأنقذ بعض أطلال ماضي الشخصي وماضي أهلي. إلا أني لم أعد أتوقع شيئاً بهذا الشأن“ (٤٣). وهو ما تشعر به بطلة رواية “استوديو بيروت” للروائية اللبنانية هالة كوثراني التي تعود هي وزوجها إلى بيروت، وتسعى للتقاط صور من واقع المدينة اليومي بعد الحرب، وترصد حالة التغير في وجوه المارة وفي حركاتهم: “أصحاب الوجوه المتنقلة في الشوارع يتكلمون مع أنفسهم دون أن يحركوا شفاههم، يفكرون، يخططون، لكنهم لا ينتبهون إلى حركة أجسامهم وهي تمشي نحو هدف محدد أو هدف غير محدد. وأنا الآن امشي مثلما يمشون، لحظة وصلت إلى البلد أصبحت مثلهم. أمشي وأنا أكلّم نفسي“ (٤٤). وهو ما يعني أن الشخصيات تشعر بهشاشة الوضع، ولا تثق بمفهوم السلام الذي يبدو بنظرها هدنة قبل تجدد الحرب مرة أخرى؛ فعندما تختفي الحرب من المشهد اليومي والفضاء العام، تكون قد تركت وراءها شخراً عميقاً في البناء الثقافي والاجتماعي، كما يشير إلى ذلك بطل رواية “أوكي مع السلامة” لرشيد الضعيف: “كان يريد أن يقول إن ما نشهده اليوم من اشتباكات هو بداية انفجار كبير سيدوم طويلاً سنوات أو عقوداً مع كل ما يعنيه ذلك من دمار وآلم وقفز في المجهول، وإن اللبنة ستصبح صفة مرادفة للانقسام والانتقام والتدمير الذاتي والخراب العظيم“ (٤٥).

ولا يقف الخوف من عودة الحرب على الذاكرة القريبة من الحدث، ففي رواية “اعترافات” للروائي اللبناني ربيع جابر يكون قد مرّ زمن طويل نسبياً على انتهاء الحرب، ولكنها لا تختفي في ذاكرة الخطاب الإعلامي: “١٨ سنة مضت على انتهاء الحرب الأهلية والآن يكتبون في الجرايد إننا على باب حرب جديدة: من جديد سنقتل بعضنا“ (٤٦). يرفض إيليا أن تكون عودة الحرب بهذه السرعة، فالزمن الذي يتطلب عودتها قد يكون أربعين أو خمسين عاماً برأيه؛ لذا يقول: “لا أنصح أحداً أن ينجب سلالة في هذا البلد“ (٤٧). وهكذا ترى “فيريحي” في رواية “مملكة الفراشة” لواسيني الأعرج عودة الحرب الأهلية محتملة حتى بعد مرور عقد على انتهائها: “كانت مقتنعة كلياً بأنّ الحرب التي انتهت، خرّبت البلاد مادياً، والحرب الصامتة الداخلية خرّبت الناس داخلياً. والحرب القادمة ستمزق البلاد والعباد، وستدخل الناس في وحشية مطلقة من التقتيل، مدمرة بشكل نهائي كل نسيج القرون الماضية“ (٤٨)؛ لذا تذهب إلى البنك لتحفظ مدخراتها، فهي ترى أنّ الحرب تعود بطريقة أبشع بسبب عدم معالجة جذورها، وعدم الاهتمام بآثارها السلبية بعد انتهائها، وهو ما سيؤثر بالمجتمع، والإنسان، والذاكرة: “كانت مقتنعة بأنّ الحرب التي انتهت بعد أن خرّبت داخل الناس يمكنها أن تعود في أية لحظة؛ لأنّ الترميمات الداخلية لم تحدث، وبقي كل شيء معلقاً في الفراغ ينتظر من يشعله كبرميل بارود“ (٤٩).

يُعدّ الربط بين استعادة الحرب من الذاكرة، وتشيتت البنية التقليدية للحبكة، أسلوباً للتعبير عن فظاعة الحرب، كما يشير إلى ذلك مجد في رواية “طابق ٩٩” لجنى فواز الحسن: “في محاولة لاستعادة الذاكرة، تبدو الأحداث دائماً ناقصة ومبعثرة، ليس لشيء وإمّا لفظاعتها“ (٥٠)؛ لأنّ الفوضى في البناء تعكس الخلل الذي يحدث في الواقع المعيش، فالحرب تخلق ذاكرة مشوشة، وطبيعة الحروب الداخلية تتضح في أنها حروب لا نهاية واضحة لها ولا بداية؛ لذا لا

٤٣ () م.ن: ١٢.

٤٤ () استوديو بيروت، هالة كوثراني، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٨: ٧.

٤٥ () أوكي مع السلامة، رشيد الضعيف، دار الساقى للنشر، بيروت، ٢٠١٢: ١٠.

٤٦ () اعترافات، دار الآداب للنشر، بيروت، ٢٠٠٨: ٢٦.

٤٧ () م.ن: ٢٦.

٤٨ () مملكة الفراشة: ١٩١-١٩٢.

٤٩ () م.ن: ١٩٢.

٥٠ () طابق ٩٩: ٢٩، ينظر أيضاً: عشاق وفونوغراف وأزمنة: ٨٣، سيدات زحل: ١٨.

یمن روایتها في بناء متماسك، وهو ما يشير إليه البطل في رواية "شاي أسود" لربيع جابر: "الاستعداد يعني التنظيم. التنظيم يفترض مراجعة الذات. مراجعة الذات تفترض بداية واضحة. البداية الواضحة تفترض قدرة على استخدام الذاكرة" (٥١).

يعجز مارون في رواية "اعترافات" لربيع جابر، عن استعادة قصته في سياق مترابط، وهو يحاول تذكر ماضيه عندما كان طفلاً، فيتذكر وجهاً مشوشاً لوالدته قبل أن تُقتل هي وباقي أفراد العائلة على يد والد مارون بالتبني، إذ يقتلهم ثأراً لمقتل ابنه الصغير في الحرب على يد الطائفة المسلمة: "مهم أن أخبرك القصة بالترتيب لكنها تهجم عليّ هكذا. أشعر أنني غير قادر، أنني... الصور تطفو وأنا لا أقدر" (٥٢). فواحدة من أساليب كتابة قصة أو فلم عن الحرب هي عدم الحرص على وضوح سياق الأحداث، كما يشير الراوي في رواية "سيناكول" لإلياس خوري: "اقترح طلال على مارون بغدادي أن يبدأ فيلمه بعودة ملاك ملاك إلى بيروت، وشعوره بالغربة في مدينته ووسط أصدقائه القدامى: يبدأ الفلم من لحظة العودة، ثم يتحول إلى فلاش باك لذاكرة مشوشة عن جريمة الجامعة الأمريكية، وعن حرب لا يمكن روايتها داخل سياق واضح" (٥٣).

فالحرب- وهي تنتهي في الواقع - تترك أثرها على الذاكرة التي تحتاج إلى مفهومي البداية والنهاية؛ لتحافظ على اتساقها. وتحتاج إلى إرادة قوية لإعادة بنائها بعيداً عن اشتراطات الحاضر.

الآفاق المعاكسة للعنف وواجب الذاكرة (التسامح مثالا):-

إنَّ عدم القدرة على التسامح حتى مع محاولة نسيان الماضي تمثل أكثر القيم الإيجابية غياباً في الروايات محل البحث، وتأثير ضعف هذه الإرادة هو تشخيص لأهميتها في تغيير مآلات النزاع والخروج من الأزمة، وعدم الارتداد إلى دوامة العنف. فغياب إرادة التسامح يدفع إلى الإغلاء من النزعة التدميرية للحياة (٥٤).

لا يصمد طلب الغفران في رواية "قشور الباذنجان" لعبد الستار ناصر أمام تاريخ الإجرام لدوهان البيجات: "ضميري يأمرني أن أغفر، وذاكرتي تؤخرني وتجرحني، وراء ضميري عشرون سنة نسيت فيها ما تحطم مني وما انكسر من ضلوعي بينهم، فما الذي أعادني إلى نصف أحزاني ونصف أوجاعي" (٥٥). يخوض ياسر صراعاً مع نفسه وذاكرته في سبيل منح المغفرة، فالذاكرة تؤدي فعلاً سلبياً إذ إنها تحتفظ بزخم الحدث وتمنع تحقق شروط التواصل مع الآخر: "الذبح مجرد كلمة، نطق بها دون خوف، بينما جسدي يتقشر رعباً إذا ما سمعتها، وأنا أتذكر أنَّ الحب هو كلمة أيضاً (...) بينما الحرب والأخطبوط والجريمة والفساد، كلمات أيضاً، ماذا أقول لهذا الجالس في حوش البيت لا يريد أن يغادرنى إذا لم أغفر له؟ يقال إن لله تسعة وتسعين اسماً (...) هو الغفور، لكنه المنتقم في الوقت نفسه" (٥٦). لكنه يقرر أنَّ يغفر لجلاده، مع أنَّ الأخير يُقتل على يد الميليشيات التي لا تنسى أفعاله: "أذهب إليه وأغفر له فهو أفضل من بقية القتلة الذين تأخذهم العزة بالإثم" (٥٧). ينجز فعل المسامحة غالباً على نطاق فردي، ومحدد بانتقاء من

٥١ () شاي اسود، ربيع جابر، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥: ٣٦ .

٥٢ () اعترافات : ٢١.

٥٣ () سيناكول : ٣٩٣.

٥٤ () ينظر : الهوية والهويات، الفرد، الزمرة، المجتمع، تحرير : كاترين آلبرين-جان كاود روانو بوربالان، نقله إلى العربية، د. أياس حسن، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٧ : ٣٣٠/١.

٥٥ () قشور الباذنجان : ٢٦.

٥٦ () م. ن: ١٦-١٧.

٥٧ () م . ن : ٤٩.



یمن منحه العفو والمسامحة، فعندما تكون الجرائم جماعية تأخذ بُعد (الجريمة ضد الأمة)، عندها لا يمكن منح العفو بالنيابة عن آلام الآخرين، كما فعلت السلطة في رواية "مذنبون" للحبيب السائح، فعندما عفت عن (لحو) الإسلامي المتطرف الذي قام بذبح الكثير من أهالي قريته وكان من بينهم عائلة (رشيد)، لم يتمكن الأخير من منحه العفو الشخصي، الذي منحه إيّاه الحكومة، ولم يتمكن من مسامحته، فقرر تنفيذ عدالته الشخصية: "ففي القبو كان قطع لي: لن ينجليه من نقمتي عفو، ولو طليت صحيفة سوابقه ببريق الساسة جميعاً أو أعاد القضاة تدوين أفعاله بمداد غير الدم الذي سفكه" (٥٨). ويرى العديد من أهالي القرية وضباطها فعله سليماً، ويتعاونون على إخفائه من أعين السلطات؛ لأن التسامح كان سيكون تضحية بمفهوم العدالة: "فالجريمة تتجاوز الإطار الخاص، فالخطيئة، والإهانة، والجريمة لم تُصب الضحية بمفردها، إنّما (...) تسببت في انتشار الفوضى والاضطراب في النظام الاجتماعي الذي يطالب بإقامة العدالة والتعويض" (٥٩). ويشخص الشاعر في رواية "الشمعة والدهليز" لطاهر وطار أسباب النزاع الداخلي في الجزائر، بغض الطرف الذي يمارسه الجميع بعد نيل الاستقلال، وكان من نتيجته صعود المجرمين والقتلة إلى المناصب السياسية والتشريعية: "وليكون قاطع الطرقات السابق، محافظ الشرطة الآن، يحمي أمن البلاد والعباد (...) علينا جميعاً أن نتواطأ، فنغض الطرف عما نعرفه عن بعضنا في الماضي القريب والبعيد، ليكن هذا الجيل كله جيل تواطؤ، جيلاً يلاحقه الإحساس بالذنب والإثم حتى آخر حياته" (٦٠)؛ فسياسة العفو والتغاضي من دون تنفيذ القانون أو معاقبة الجناة ليست في رأيه خياراً جيداً للخروج من الأزمة؛ لأنها حل مؤقت يؤدي بعد ذلك إلى حروب ونزاعات أسوأ. وتروي رواية "طابق ٩٩" لجنى فواز الحسن قصة (مجد) الشاب الفلسطيني النازح من المخيمات الفلسطينية في لبنان، والناجي من مجزرة صبرا وشاتيلا بنذبة في وجهه وعوق في رجله. يسعى مديره في العمل لإقناعه بمعالجة آثار الحرب على جسده، لكنه يرفض: "رأى أي أيضاً أراد أن أداوي آثار الحرب على جسدي، لكن أحداً لم يفهم هذه الحاجة في داخلي، لأن أبقى متصلاً بالماضي (...) أن أسعى إلى تجميل نفسي، بالنسبة إلي، كان أشبه بعملية اقتلاع جزء الشر من الحكاية" (٦١). بينما تقرر بطلة رواية "منازل الوحشة" لدنى غالي منح آفاق المسامحة، كخيار متميز وفردى أيضاً، لكنه يمتد إلى زمن قادم بعد سلسلة من الأحداث التي تفكك العلاقة العائلية في الداخل والتغيرات التي تمر ببلدها العراق بسبب الحروب والحرب الأهلية: "أفهم مواصفاً جيداً، كنت أشعر بسعادة عميقة هادئة، أظنني وجدت حلاً، أظنني وابتداء من هذا الصباح سأختار ما أريد، أنا لا أريد أن أشبه أحداً ممن هم حولي، وفي زماني، أنا أنتمي إلى زمن مجهول بعيد جداً، أو قادم ربما، زمن أكثر سلاماً وهدوءاً سامحاً. سأكتب وسأختار هوية أخرى أو هويات" (٦٢).

ختاماً نجد أن خيار التسامح يخفف - على المستوى الفردي - من شروط الكراهية، وما تحتاجه الشخصيات هو الحب الموضوعي الذي يشير إليه فرويد في أنه يتحول من نزعة الأنانية إلى المجتمع. فجوهر حروب الإبادة يكمن في (التعصب)؛ بوصفه إرادة يقوم على الكراهية والازدراء والتمييز، وخطر التعصب يكمن في طريقة تفاعلنا مع فعل القتل، إذ إن قتل شخص بسبب مصالح خاصة كفيل بعد الإنسان مدانا ومجرماً في نظر المجتمعات، بينما قتل آلاف الناس لا يُعدّ في نظر كثير من المجتمعات فعلاً إجرامياً، ولا يُختلف بشأن دوافع القتل لصالح جماعات دينية أو

٥٨ () مذنبون : ١٦.

٥٩ () الذاكرة والأمل : ٢٤٦.

٦٠ () الشمعة والدهاليز : ٨٠.

٦١ () طابق ٩٩ : ١٧٣-١٧٤.

٦٢ () منازل الوحشة : ١٧٤.

سیاسیة أو اجتماعية أو عنصرية أو قبلية أو وطنية(٦٣)؛ لذا يُجترح الحب والمحبة أفقا للخروج من خطاب الكراهية المتمنية زوال الآخر، وهي تمثل أعلى سقف أخلاقي يروج له الإنسان في الدولة - الأمة، والإنسان في ما بعد الدولة الحديثة. وبما أنَّ حركة الذاكرة وتفسير الحرب في الوعي الجمعي تذهب باتجاه أسباب طبيعية وقدرية، فإن ذلك سيُعيق عملية التذكر من أداء مهامها، فالتذكر لن يؤتي ثماره إلَّا بخلق الذاكرة المضادة؛ التي ستقدم تفسيرها على أسس إنسانية، وتنتقي من التاريخ ما يمكن أن يضع الحجج المناسبة لتفسير أسباب الحروب. واشتراط عدم النسيان التام؛ لأن النسيان التام لن يُمكننا من فهم الحرب ومن ثم لن يساعدنا على تجنبها.

الخاتمة :-

يرتبط موضوع الذاكرة بموضوع الهوية ارتباطاً وثيقاً لانهما يجتمعان على تكوين صورة للفرد عن نفسه وعن جماعته، وهذه الصورة ليست نقية بل متخيلة إلى حد كبير، وقد بيّن البحث ان شكلا من الهويات يمكن أن يعد مفتاحاً تفسيرياً لعلاقتنا بأنفسنا وبالسلطة، وكانت الهويات المفترسة إحدى هذه الأشكال وتقوم هذه الهوية على مفهوم الأغلبية والأقلية لذلك تكون مفترسة إذ تميل الأغلبية إلى تحجيم وتقليل فرص الأقلية في البقاء لان الأخيرة تهدد النقاء التام للهوية ، وتقلل من فرص تجاوز الماضي ونسيانه، لذلك يوصي البحث بمتابعة وتطوير دراسات الذاكرة وخلق مسافة نقدية بين الذاكرة والتاريخ.

مصادر البحث ومراجعته

أولاً:- الروايات

- آخر الملائكة، فاضل العزاوي، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٦.
- استوديو بيروت، هالة كوثراني، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٨ .
- اعترافات، ربيع جابر، دار الآداب للنشر، بيروت، ٢٠٠٨ .
- أوكي مع السلامة، رشيد الضعيف، دار الساقى للنشر، بيروت، ٢٠١٢ .
- التائهون، أمين معلوف، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٣.
- حصار العنكبوت، كريم كطافة، دار نون للنشر والتوزيع، راس الخيمة، ٢٠١٤ .
- سيدات زحل، لطيفة الدليمي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
- سيناكول، إلياس خورين دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٢١.
- شاي اسود، ربيع جابر، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥.
- شريد المنازل، جبّور الدويهي، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠ .
- الشمعة والداهليز ، الطاهر وطار، منشورات الجمل، المانيا ٢٠٠٣.
- الظل والصدى، يوسف حبشي الأشقر، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٩.
- طابق ٩٩، جنى فواز، منشورات ضفاف، دار الاختلاف، بيروت، ٢٠١٤.
- طواحين بيروت، ليوسف توفيق عواد، منشورات دار الآداب، بيروت، ١٩٧٢.
- فرانكشتاين في بغداد، أحمد سعداوي، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٣.
- قتلة ، ضياء الخالدي، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١٢.



- قشور الباذنجان، عبد الستار ناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧.
- القناذ في يوم ساخن، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بنغازي، ٢٠١٢.
- كوایس بیروت، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.
- عشاق وفونوغراف وأزمنة، لطيفة الدليمي، دار المدى، بغداد، ٢٠١٦.
- مدن الیمام، ابتسام تريسي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤.
- مديح الكراهية، خالد خليفة، دار أميسا للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.
- مذنبون؛ لون دمهم في كفي، الحبيب السائح، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠١٤.
- مملكة الفراشة، واسيني الأعرج، كتاب دبي الثقافية، دار الصدى، دبي، ٢٠١٣.
- منازل الوحشة، دُنى غالي، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٤.
- یا مريم، سنان أنطوان، منشورات الجمل، بيروت - بغداد، ٢٠١٢.

ثانياً: - الكتب

- الأمل والذاكرة، خلاصة القرن العشرين تزفتيان تودوروف، ترجمة: نرمين العمري، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٦.
- الجماعات المتخيلة تأملات في أصل القومية وانتشارها، بندكت أندرسن، ترجمة: ثائر ديب، المركز القومي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٤.
- الخشية من الأعداد الصغيرة: دراسة في جغرافية الغضب، أرجون إبادوراي، ترجمة: مفيدة مناكري لبيض، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١٠.
- الرؤية القلقة في أطروحة الشيعة والدولة القومية لحسين العلوي، مؤيد عبد القادر، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٧.
- سوسيولوجيا الهوية، جدليات التفكك والوعي والبناء، د. عبد الغني عماد، مركز دراسات الوحدة، بيروت، ٢٠١٧.
- الشرق الأوسط الجديد: الاحتجاج والثورة والفوضى في الوطن العربي، آفي شلايم، تحرير: فواز جرجس، نقله إلى العربية، عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نيسان، ٢٠١٦: ٢١.
- القسوة والصمت، كنعان مكية، منشورات الجمل، دار الساق، ألمانيا، ٢٠٠٥.
- عصر الرواية مقال في النوع الأدبي، الدكتور محسن جاسم الموسوي، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، ١٩٨٥.
- الكولونيالية وما بعدها، أنيا لومبان ترجمة: د. باسل المساملة، دار التكوين للتأليف والنشر، دمشق، ٢٠١٣.
- الهويات القاتلة - قراءات في الانتماء والعولمة، أمين معلوف، ورد للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٩.
- الهوية والهويات، الفرد، الزمرة، المجتمع، تحرير: كاترين آلبرن-جان كاود روانو بوربالان، نقله إلى العربية، د. أياس حسن، دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٧.



Predatory Identities the Duty to Remember and Forget / A Study in Arabian Novel

Dr. Nadia Ghadban Mohammed

Iraqi Academy of Sciences

Baghdad

Nadia.ghadban@yahoo.com

Abstract

Memory studies are among the studies that fall in the interdisciplinary field, and the need for them has arisen to address the present representations of groups and nations because of the collective memory of the groups that present a present perception of the past, and the issue of genocide and genocidal violence is one of the present topics in our contemporary reality. Therefore, this research seeks to find a literary and critical reading of the duty of memory. By raising the issue of genocide in literature through the concept of (predatory identities) by the anthropological researcher (Arjun Appadurai). Predatory identities are identities “whose construction and social organization require the extinction of other social groups close to them, identified as threatening the existence of a group (us)”.

The feeling of threat is the first determinant of group building, and at the same time, the first signs of its predatory nature, confirming the existence of the other (the enemy) is a condition for building identity in general, and predatory in particular. Appadurai defines conditions for these identities, saying: “Predatory identities are generated periodically from the presence of two or more identities, which have a long history of friction and amalgamation, and a certain limit of mutual stereotyping. It is, but there must be some degree of discrepancy between the two groups in defining the identity.” The predatory identity claims to be the majority. It moves to achieve identity purity by getting rid of the other identity that hinders the completion of its purity.

Keywords: Memory studies, genocide, identity, Arabian Novel.